الكتاب الثاني والعشرون

الأمة القطب

نحو تأصيل منهاجي لمفهوم الأمة في الإسلام

أ.د. منى أبو الفضل

تحليل وعرض د. حسان عبد الله حسان

الكتاب والكاتب:

الكتاب الذي تتم دراسته هو كتاب «الأمة القطب.. نحو تأصيل منهاجي لمفهوم الأمة في الإسلام»، وطبعته الأولى لمكتبة الشروق الدولية عام ٢٠٠٥، ويقع في ١٠٥ صفحة، إلا أنه لم يكن الطبعة الأولى للكتاب، حيث صدر الكتاب في عام١٩٩٦ نشر للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، في عدد صفحات ٦٣ صفحة وكتب عليه الطبعة الأولى. كما جاء-أيضًا- في السيرة الذاتية لمؤلفته الموجودة في الرواق الخاص بها بأنه طبع عام ١٩٨١ دون إشارة إلى لغة الطبعة أو مكان نشرها.

أما الكاتب فهو الدكتورة منى محمد عبد المنعم أبو الفضل المولودة في القاهرة(١٩٤٥- ٢٠٠٨)، تخرجت في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة عام ١٩٦٦، وحصلت على الدكتوراة في العلوم السياسية من جامعة لندن عام ١٩٧٥، وعملت أستاذًا زائرًا بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن من١٩٨٦-١٩٩٥ ،و أستاذًا زائرًا في جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية بواشنطن والتي شاركت في وضع برامجها التأسيسية من ١٩٩٥-٢٠٠٨ ،والتحقت بهيئة التدريس بجامعة القاهرة منذ عام ١٩٧٦. كما شاركت في العديد من المؤتمرات العربية والدولية خصوصًا في الولايات المتحدة وبريطانيا وكانت عضوًا في الجمعيات العلمية المتخصصة في مجالات العلوم السياسية والعلوم الاجتماعية.

نلاحظ مما سبق التكوين العقلي للمؤلفة لاسيما في دراستها في أوروبا وتدريسها في أمريكا وحضورها في الغرب لفترات طويلة من حياتها وإسهاماتها الدولية في المؤتمرات والكتابات أنها كانت على وعى بالمشروع الغربي بكل عناصره لاسيما مكوناته الفكرية والسياسية - حيث عاشت جانبًا كبيرًا من حياتها في الغرب ومكنتها اللغة الإنجليزية من الاطلاع والدرس والبحث في عناصر هذا المشروع ومكوناته المختلفة، إلا أنها كانت تحمل في مقوماتها الشخصية ذلك البعد الحضاري التوحيدي، وفى ضوء نقدها للمشروع الغربي والتغريبي حاولت تقديم ما يمكن أن نطلق عليه إصلاحًا معرفيًا للأزمة الفكرية التي يعيشها العقل المسلم لاسيما في ميدان العلوم السياسية مجال تخصصها.

ومن خلال رؤية عامة لإنتاجها الفكري ومشروعاتها الثقافية يمكن الإشارة إلى أهم ملامح الخريطة الفكرية لها فيما يلي:

١- الإسهام في محاولات بناء منظور حضاري إسلامي معاصر. والفكرة البارزة في هذا الإسهام هو تأكيدها على «المنهج» أو «المنهاج» و«الإطار المعرفي» و«النسق القياسي» و«النماذج التحليلية» وكل هذه العناصر تمثل مضامين مختلفة تساهم في بناء هذا المنظور الحضاري الإسلامي المعاصر. وقد أكدت في هذا الصدد على ضرورة الوعي المنهاجي ونعت على الأمة التي تضيع منها الشرعة وتغيب عنها الغاية بعد أن أُخرجت على أكمل شرعة وأتم منهاج.

٢- التكامل المعرفي بين العلوم الشرعية والعلوم العصرية، أو كما أطلقت عليها «الإسلاميات» و«الإنسانيات»، وقدمت رؤيتها في هذه المعالجة في أكثر من موضوع لاسيما في بحثها الموسوم «نحو إعادة بناء الأمة الاجتماعية والشرعية: مراجعات منهجية وتاريخية» وقد قدمت في ذلك نموذجًا لمعالجة مسألة الفصل والازدواجية المعرفية في ميدان العلوم السياسية.

٣- دراسات المرأة من منظور حضاري إسلامي، كما تذكر نادية مصطفى في (ندوة العطاء الفكري لمنى أبو الفضل) أنها كانت ترفض ما يسمى بالدراسات النسوية وكانت تفضل المنظور الحضاري لدراسات المرأة، وقدمت نقدًا للفكر القائم على المدرسة الماركسية، والمدرسة الليبرالية، مضيفة تقاليد المدرسة الحضارية العربية الإسلامية في النظر للمرأة مفهومًا وتطبيقًا للمنظور الحضاري المعرفي التوحيدي.

وفى هذا الصدد أسست منى أبو الفضل مع مجموعة من النساء الأكاديميات المسلمات في عام ١٩٩٨ حقل علمي يهتم بدراسات المرأة عُرف بكرسي الدكتورة زهيرة عابدين لدراسات المرأة في جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية بالولايات المتحدة الأمريكية.

كما أسست في مصر «جمعية دراسات المرأة والحضارة» عام ١٩٩٩ ويتركز نشاطها في مجال الفكر والتوعية من خلال إجراء البحوث والدراسات والندوات، كما أصدرت ثلاثة أعداد من دورية «المرأة والحضارة» والتي تعنى بدراسات المرأة المسلمة والتي اهتمت مضامينها بتقديم طرح للمنظور الحضاري للمرأة في الإسلام، ومقاربات معرفية لقراءة سيرة المرأة ودورها التاريخي في المجتمع المسلم.

٤- التأصيل النظري للدراسات الحضارية في مجال «حوار الحضارات»، حيث ساهمت-أيضًا - منى أبو الفضل في مشروع التأصيل النظري للدراسات الحضارية في برنامج حوار الحضارات بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية الذي تأسس في عام٢٠٠٢، وقد جاءت مساهمتها في هذا البرنامج للبحث في تفنيد ادعاءات عالمية النظرية الاجتماعية المعاصرة، ودعت إلى القيام بمبادرة نقدية بناءة تكون الأساس في إشباع الطموحات المرتبطة بصياغة نظرية اجتماعية عالمية، حيث تعانى التفسيرات الموجودة من عجز وأزمة معًا فيما يتعلق بالأطروحات الغربية التي مازالت تمسك بتلابيب العمران والعصرنة.

وأشارت - أيضًا - إلى أن النموذج المعرفي التوحيدي هو البعد المفتقد في ثنايا الخطاب السائد، ومن هنا فإن مقتضى الحال يستوجب الحديث عن مقولات هذا النظام وتوضيح فرضياته.

٥- العناية بالمفكر المسلم أو الباحث المتفقه ، في لفتة معرفية تنتقل منى أبو الفضل من الفكر إلى المُفَكِّر ومن البحث إلى الباحث وهو ما يحتاج إلى تأمل عند أصحاب المشروع الإسلامي وهو ما يتعلق بالمفكر والباحث -حيث تندر الإشارة إليه - وهو ما توقفت عنده منى أبو الفضل فأشارت إلى ما يجب أن يكون عليه المفكر عند التحليل أو التنظير أو التأويل فذكرت «إن المفكر يعيش واقعه على مستويين: مستوى المعايشة الكلية من خلال تفاعل مركب مع الحدث أو واقع الزمان والمكان، ثم على مستوى الوعي الانعكاسي النقدي في النظر والتأمل في هذا الواقع، بعد اختمار أو اختزان وجداني، أي يعيش مرحلتين قد تتداخلان: مرحلة معايشة ومرحلة استرجاع. وفى كل الحالات غالبًا ما تتم هذه العمليات في ضوء مرجعية ذاتية تحكم مسارات القراءة تفسيرًا وتأويلًا وتحليلًا، أو تنظيرًا وتقويمًا، وتعود إلى مساحات قبلية، أي فيما قبل المنهج، سواء كانت واعية أو غير ذلك. ولا تخفى أهمية الإطار المرجعي الذي ينطلق منه النظر حيث إنه لا يتوقف عليه فقط تحديد الماهيات، ولكن يتعدى أثره إلى تكييف الآليات: آليات البحث العلمي في الظاهرة الاجتماعية، وسؤال التكافؤ المنهجي» .

ثم أكدت على المرجعية التي يجب أن ينطلق منها الباحث المتفقه -كما وصفته- وهي «المرجعية القرآنية التي ينطلق منها الباحث عند اقترابه من الواقع العمراني تتخذ من التوحيد والعمران والتزكية قيمًا عليا في التعامل مع هذا الواقع، فهمًا أو سلوكًا. فإذا ما تحدثنا عن العمارة والعبادة في ضوء هذا المنظور، قلنا إنهما وجهان لعملة واحدة. وعندها يثور السؤال: كيف نترجم هذا المفهوم على مستوى المنهج

وليس من مجرد المعايشة الوجدانية لمفاهيمه؟ فإذا كان المنهج العلمي الحديث يقتصر في دراسته على الظواهر أو الأوضاع التاريخية والمؤثرات المادية، وهو ما يمكن أن نسميه «بالبرانيات»، فإنه لابد من أن نوجد النموذج والنسق التوحيدي الذي يمكننا من التعامل مع ما دون ذلك وما وراءه من كوامن ومطلقات تؤطر للدوافع والأوجه عند تقديم الوقائع والوشائج في مدار الحراك العمراني، وبالتالي فإنه لابد من إعادة النظر في مفهوم الظاهرة الاجتماعية ذاتها، وفى تقويم الواقعة التاريخية، بحيث نكون إزاء منهاج يستطيع أن يتعامل مع كل القيم والمعنويات، ومجال «الجوانيات» إن أردنا، إضافة إلى الأبعاد «الزمكانية» التي تؤسس للنسبية والسببية في توالى الظواهر وتعاقب الأحداث.

كتاب الأمة القطب:

يمكن تحديد مكانة كتاب «الأمة القطب» بين الإنتاج الفكري لمنى أبو الفضل في مكانة «القطب» بالنسبة لهذا الإنتاج حيث تتمحور حوله كل نتاج منى أبو الفضل سواء تلك التي تتصل بالمنهج أو مصادر التنظير، أو علم السياسة، أو التراث السياسي الإسلامي، فالخصوبة الفكرية التي اتسم بها طرح مفهوم «الأمة» وعمليتي التحليل والتأصيل اللذين اهتمت بهما منى أبو الفضل يوضحان أن مفهوم «الأمة» هو القطب بالنسبة لكافة الطرح الفكري بدءًا من الدعوة لإحياء المنظور المعرفي التوحيدي، والتأصيل لمنظور حضاري إسلامي معاصر، ومعالجة الأزمة المعرفية، وتقديم طرح حضاري لدراسات المرأة المسلمة.

يضم الكتاب خمسة فصول وتمهيدًا ومدخلًا منهاجيًا وخاتمة ،الفصل الأول يتناول موجبات البحث في العقيدة ومعالم المد الإحيائي الإسلامي المعاصر ،والفصل الثاني يعالج موضوع الأمة في الإسلام ، والفصل الثالث يطرح مفهوم جدلية الاستقطاب ،والفصل الرابع يناقش حيوية التنشئة الجماعية في الإسلام،

والفصل الخامس يصل إلى المفهوم الأساس الأمة القطب. الأمة الوسط.

الأمة: من الذات إلى الموضوع

تفرض علينا النظرة التحليلية لكتاب «الأمة القطب» ليس فقط أن نبحث في التأطير النظري لهذا المفهوم أو تناول جوانب التأصيل فقط؛ لأن هذا جزء مما قدمته المؤلفة في هذه الدراسة التي تمتلئ رغم صغر حجمها بالعديد من الإسهامات ومجالات البحث العلمي التي لابد من التوقف عندها وتأملها وإخضاعها للدرس والبحث.

وأول ما يلفت الانتباه في التمهيد الذي قدمت به الكاتبة دراستها ما يتعلق بالشأن الثقافي والمعرفي لمفهوم «الأمة» وكيف أنه شغل مكانًا وجدانيًا عندها قبل أن يشكل وعيًا عقليًا، فإن المفهوم موضوع النظر - مفهوم الأمة القطب - كما تقول «قد انبثق عن معايشة وممارسة فعلية لحالة فريدة من التماهي على عدة مستويات، وفيما بين عدة دوائر: فهناك التماهي بين صاحب الفكرة وعين الفكرة، حيث امتزجت الفكرة وجدانًا وتبلورت معنويًا على مستوى المعايشة، قبل أن تفرض نفسها تحديًا عقليًا يستوجب النظر والتمحيص، وتحرير المعنى على مستوى المنطق والعبارة والصياغة».

كما أن الالتفات لهذا المفهوم جاء بين تفاعل الذات (ذات الكاتبة وبين سياقها الأكاديمي العلمي) والذي أحدث - كما تذكر «نوعًا من التماهي الذي ولد في إطار التحدي والاستجابة في منبر رسالي يجمع بين الطالب والأستاذ، ثم قبل هذا وذاك هناك التماهي الناجم عن معايشة مرحلة تاريخية تعج بجملة من المفارقات الناجمة عن واقع يزداد الشعور بدلالاته في محيط التعليم الجامعي حيث عمليات شحذ الوعي على ملامح واقع مأزوم، يزيده حدة موضوع الخطاب... وتقصد به هنا تدريس مادة «النظم السياسية العربية».

«الأمة القطب» إذن بدأ ذاتيًا من بعد وجداني وسياق علمي خاص إلى أن انتقل إلى «اللحظة الفارقة» أي أصبح «موضوعًا» للنظر والتأمل والدرس. وهذا ما حرصت الكاتبة أن تؤكده في أكثر من موضع حيث اهتمت بالتعريف بالسياقات الاجتماعية التي عايشتها والتي أدت إلى ظهور هذا المفهوم - موضع الدراسة - وفضيلتها أنها لم تخف ذلك بل أعلنته لإبراز أهمية «وظيفية الأفكار» وضرورة ارتباطها بالواقع المعاش من ناحية، وارتباط المفكر بواقعه من ناحية أخرى وهذا بعد اجتماعي حرصت الكاتبة على تأكيده في أكثر من موضع في هذه الدراسة.

وفيما يتعلق بالسياقات الاجتماعية التي أحاطت ببروز هذا المفهوم على مستوى التشكل العقلي لديها تقول «نشأت كفتاة مسلمة ارتبطت بالقرآن ارتباطًا وجدانيًا تأكد بالمعايشة والممارسة، وكنت على حب شديد وإيمان عميق بحضارة إسلامية ووجود إسلامي أتلمس أصوله وأفتقده في الواقع. ومن ناحية أخرى، وجدتني في مسار حياتي العلمية ضمن السلك الجامعي أقوم بتدريس مساقات في العلوم السياسية ومنها مادة «النظم السياسية العربية»... التدريس هناك - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة - شأنه شأن الدراسة في الجامعات الحديثة كان يتم من منطلق علم السياسة والفكر السياسي المعاصر الذي يدور في إطار المنظور التغريبي، والذي لا علاقة له بالعلوم التي نسميها إسلامية أو الإسلاميات أو الشرعيات أو نظام التعليم التقليدي».

وهنا بدأ المفهوم - الأمة القطب - في بداية التشكل والانتقال لكونه موضوعًا رأت منى أبو الفضل ضرورة «تأطيره» و«تأصيله». وفى سياق اجتماعي أكثر اتساعًا لاحظت المؤلفة ذلك التطور المفصلي الذي بدأ يلوح في أفق الفكر السياسي العالمي، والذي وجد له أصداء في أوساط جامعية في قلب العالم العربي، وما أثاره من أسئلة لا عن طبيعة العلاقة بين الدين والسياسة وموقع الدين من الثقافة المعاصرة، بل على

مستوى وعى منهاجي جديد يدعو إلى مراجعة الفصل التعسفي بين العلوم والمعارف، خاصة بين الدراسات الاجتماعية والدراسات الشرعية، هذا الفصل أو الازدواجية التي نجمت عن تراجع التعليم الديني أو التقليدي وإهماله ،رأت الكاتبة أن ذلك يدعو إلى ضرورة إيجاد «بنية جديدة لمناهج التعليم تستوعب القيم المعرفية الإسلامية وتدمجها ضمن المناهج العلمية الحديثة، أو على نحو أدق: أن تتم مراجعة المنهجية الحديثة على ضوء مصادر معرفية وقيمية إسلامية».

هذه دعوة في أحد أشكالها للتكامل المعرفي في معالجة لأزمة الفصل المعرفي» أو «الازدواجية المعرفية» التي كانت من أبرز التأثيرات لحركة التغريب ومشروعها الفكري؛ حيث شق نظام الإعداد والتكوين الإسلامي إلى نصفين نتج عنهما نظامان فكريان في مجال التربية والتعليم واصطلح على تسميتهما: التعليم الديني والتعليم المدني.

مفهوم «الأمة» والتكامل المعرفي

حاولت منى أبو الفضل تقديم معالجة للأزمة المعرفية التي أصابت العالم الإسلامي بدءًا من القرن الـ ١٩ والتي تتعلق بالفصل بين شئون الدين والدنيا وتعميم ذلك على كافة ميادين العلوم والفنون والنظم وهو ما تبناه المشروع التغريبي في هذه الفترة-كما أشرنا -، وكانت هذه المحاولة من خلال معالجة مفهوم «الأمة» معالجة معرفية لرأب هذا الصدع. فتتساءل مستنكرة «إن الأمة موضوع «إسلاميات» ! ونحن إذ نؤصل في العلوم الاجتماعية والسياسية الحديثة في عصر سمته «التحديث» و«العصرنة» و«العلمنة» ومن تبعاته الفصل بين الدين والدولة وتعميق التخصص بين فروع العلم والمعرفة فما بالنا نخلط بين الإسلاميات والإنسانيات؟ ولماذا لا نترك موضوع الأمة في الإسلام لعلماء الدين وفقهاء الشرع ونعكف نحن على تحليل ظواهر المجتمع العصري الذي نحن بصدد تشييده؟.

وتجيب على هذا التساؤل بسؤال تراه ضروريًا في متن الجواب وهو: ألم يأت علينا بعد ذلك الحين من الدهر الذي نقوم فيه برأب الصدع المفتعل بين «الإسلاميات» و«الإنسانيات»؟ وألسنا الأجدر بأن نأخذ زمام المبادرة لتوحيد أسس وقواعد بنياننا الفكري والنفسي لنعيد دمج الإسلاميات بالإنسانيات، وعلوم الفقه والشرع بعلوم الحياة واجتماع الأحياء؟

وفى دعوتها لإعادة النظر في هذا «الفصام الأعرج» بين العلوم العصرية والعلوم التقليدية، تعتبر أن موضوع «الأمة» في الإسلام يأتي في سياق بوادر هذه الدعوة لرأب الصدع في البناء ومد الجسور بين الإسلاميات والإنسانيات وتوحيد الكيان الجماعي للذات الحضارية في أصولها الكيانية بين وجدان الأمة وعقلها وفكرها.

لماذا «الأمة» لا «الدولة»؟

طرحت «منى أبو الفضل» مفهوم الأمة في الوقت الذي كان مفهوم «الدولة» مطروحًا على الساحة لاسيما في عقل الحركات الإسلامية، وهى تبرر ذلك الطرح بالخصوصية التي أولاها الإسلام للأمة، حيث إنها ترتبط بالعقيدة الدعوة، مما أضفى عليها – أي الأمة – بُعدًا غيبيًا إضافة إلى أبعاد تكوينية ووظيفية وغائية معلومة، (وتؤكد أنه وفقًا للمنظومة المعرفية التي تتبناها للتحليل فإنها لا تقصد بالغيبي النقيض أو المنافي للعقلي، بل هو أصل يتقاطع معه ويتكامل معضدًا ومثبتًا له على نهج عقلنه «الرشادة» دون ما عقلنة الوضعية المعاصرة).

وتضيف – أيضًا – أن الأمة ارتبطت بالتوحيد وهو وعاء الرسالة الخاتمة، فالرسول ﷺ – عندما مات لم يخلف إمامة أو دولة، ولكنه ترك أمة انبثقت منها المؤسسات والمدارس والأئمة والدول. فليست الدولة في الإسلام مدارًا للأمة قيامًا وتطورًا وامتدادًا وضمورًا ولكن الأمة تدور مع العقيدة، والعقيدة هي منطلق بقاء الأمة. أما الدولة فقد تكون أو لا تكون فبتأسيسها تكتمل مقومات البنية العمرانية

للأمة، وتكون أداة الذود والمدافعة عنها وتمثيلها وصيانة مصالحها ونظمها.

وترى المؤلفة أيضًا فارقًا جوهريًا وظيفيًا وعمليًا بين الأمة والدولة من حيث النشأة والدور ،فالدولة ليست بالمنشئ للأمة أو البديل عنها، ولكنها تدخل في عداد الهيئات المكملة أو المتممة، بقدر ما تؤمن للكينونة الجماعية الأم شروط الحضور التاريخي الفاعل (ومن نفس المنطلق فإن الدول في حال تفريغها من مقاصدها العليا، وتمييع أصولها، قد تعيق هذا الحضور، وتشله، ولكنها لا تبطله، ولا تنفيه). أما نشأة وتواصل وحضانة ومناعة وخصائص هذه الأمة فشيء آخر في المناط والبقاء. وطالما أن هناك قرآنا فهناك أمة، وتبقى تلك الأمة بخصائصها الأصلية ودورات تنشئتها المنيعة هي «الوعاء البشرى المحكم للقرآن الكريم» سواء وجدت بالقوة أو بالفعل ولو تمثلت في فرد مثل إبراهيم عليه السلام.

الدواعي والتساؤلات المنهجية:

تطرح منى أبو الفضل مجموعة من المحددات المنهجية لموضوع الأمة والتي يدرسها حسب ما تسميه «الباحث المتفقه» والذي يعمل على تحويل الأمة موضوعًا من «ظاهرة» إلى «مفهوم» والارتقاء بالأمة من مستوى الوجدانية إلى مستوى الوحدانية، وتشير – أيضًا – أن أهمية هذا الطرح المنهاجي تتحدد في:

أن موضوع الأمة يمس الذات – الكيان الذاتي الجماعي العربي.

السؤال هو: كيف لنا أن ننتقل بهذه الذات الجماعية من مستوى اللاشعور واللاوعي، إلى مستوى الشعور الواعي والإدراك المتفقه ؟

والرد: أن ذلك يستوجب تحويل الأمة من ظاهرة حسية وجدانية إلى مفهوم عقلي منطقي.

وتعقيبًا على ذلك...فإن هذه العملية ليست فقط ضرورية، يفرضها منطق العصر، ولكنها كذلك متاحة وممكنة بحكم الشروط والإمكانيات التي تتوفر لدينا

في هذا العصر.

وهذه الدعوة تقتضى استثمار إمكانات العصر في حل مشكلاتنا، والمنهج العلمي من بين هذه الإمكانيات. وعلى رأس هذه المشكلات الاجتماعية والسياسية - بل والإنسانية - مشكلة الانتماء ومشكلة الهوية.

إن طرح موضوع الأمة على المستوى الفكري والعلمي هو المدخل العلمي لحل هذه المشكلة. هذا الطرح المنهاجي الذي يمزج بين «الشعور» و«الوعي» و«المنهج العلمي» و«الانفتاح»، نحو إيجاد حلول للمشكلات هو المنطلق الفكري الذي قدمته منى أبو الفضل لمعالجة مفهوم «الأمة»، والذي طرحته طرحًا متجددًا في عدة تساؤلات: أين موضع الأمة من الإسلام؟ وأين موقع هذا الكيان الجماعي من الكيانات الجماعية الأخرى؟ ثم، ما الخصائص التكوينية والحيوية لهذا الكيان؟ وما الذي يحفظ على هذا الكيان جوهره ويؤمن له استمراريته؟ وأين يلتقي هذا الكيان المحوري الذي نؤصل له من «الأمة الوسط» ؟ وأين ذلك - أيضًا- من الإطار الدولي المعاصر من منطلق تيار المد الإسلامي المشهور ودلالته بالنسبة للأمة، وأين موقع الأمة منه؟

بهذه التساؤلات حاولت المؤلفة وضع الملامح العريضة لموضوع «الأمة» باعتباره من «موجبات البحث في الدعوة والعقيدة» من ناحية، وحاجة المفهوم ذاته لمزيد من التأصيل والبلورة.

ومن ناحية منهجية أخرى: ترفض منى أبو الفضل ذلك الفصل الذي حدث بين العلوم الإسلامية (الشرعية) وبين العلوم الاجتماعية والسياسية الحديثة والذي رأته نتاج لتيارات «التحديث» و«العصرية» و«العلمنة» و«التغريب» والذي من أهم تبعاته فصل «الدين عن الدولة»، وباعتبار أن الأمة موضوع ديني بالأساس فهي تتبنى ذلك «الدمج» أو «التكامل» بين «المعارف - التقليدية الدينية» و«المعارف

الحديثة». وهى في ذلك تقدم «الأمة» ليس فقط كمفهوم نظري؛ بل أيضًا كعامل مفسر لظواهر الاجتماع السياسي الإسلامي. (كما فسرت به ظاهرة المد الإسلامي الإحيائي المعاصر).

وفى قراءة لهوامش الكتاب نلاحظ اهتمامًا ملحوظًا من المفكرين الغربيين (اليهود والمسيحيين على السواء). وهو ما يشير إلى الدور الذي لعبته منى أبو الفضل في محاولة تبنى هذا المفهوم - غير المطروح على الساحة الفكرية من الناحية التأصيلية أو السياسية - حيث راج مفهوم «القومية» على حساب «الأمة» فترة التحرر والاستقلال الوطني عن الاستعمار في العالم الإسلامي. وحاولت كثير من الكتابات جعل «القومية» بديلًا لـ«الأمة» وإرساء هذا الاستبدال في الوجدان المسلم».

لذا كان من الضروري أن تطرح - المؤلفة - تساؤلها حول: مدى حظ مفهوم «الأمة» من واقعنا المعاصر؟ وهل هذا المفهوم الذي ارتجت له قلوب المؤمنين - كما تقول - على مدى أربعة عشر قرنًا قد سقط في العقل الباطن للشعوب الإسلامية بعد أن مزقتها الفواصل الإقليمية الخارقة، والحدود السياسية، والنظم «الوطنية» التي خلفت المستعمر وتشعبت ولاءاتها الفكرية والعقدية في ظل صفوات فُصِّلت على نسق «تغريبي»؟

موجبات البحث في العقيدة والدعوة

تحت هذا العنوان بدأت منى أبو الفضل الإجابة على التساؤلات التي طرحتها، ورأت أن البحث في مفهوم «الأمة» إنما هو من «موجبات البحث في العقيدة والدعوة» مؤكدة على النهج الفكري الذي يرى أن «الإسلام عقيدة ودعوة، نظامًا ومنهاجًا» وهى المقولة التي أطلقها حسن البنا في بداية القرن العشرين والتي رأت في الإسلام نظامًا شاملًا يصل الدنيا بالآخرة من خلال منهج فكرى يقوم على «التوازن» و«الواقعية» كما أشار إليها سيد قطب لاحقًا، وهذه الخاصية الأخيرة «الواقعية» رأت

فيها المؤلفة ضرورة الالتزام بها في المنهاجية التي ترصد مفهوم «الأمة».

وهذه «الواقعية» جعلت المؤلفة تأخذ في عين الاعتبار حيوية الإطار الدولي الذي نعيشه اليوم وسط مد إحيائي إسلامي، بدأ منذ السبعينات حيث برز الإسلام كقوة سياسية مؤثرة على المستوى المحلى والدولي، والذي أدى إلى بلورة رأى عام إسلامي - منظم وغير منظم - يسعى للتأثير على الحكومات والنظم، كما أصبح لهذا المد الإسلامي قوة جماهيرية «العنصر الشعبي».

كما أشارت منى أبو الفضل - أيضًا - إلى «الثورية الكامنة للإسلام في ظل الأوضاع المعاصرة»، والمتمثل في «الثورة الإسلامية في إيران» أو «الظاهرة الإيرانية».

وفى ضوء هذه «الواقعية» كان من الطبيعي التدبر والتفكر حول ظاهرة استوقفت البصر وحركة البصيرة وتجريد المفاهيم وتأصيلها في نطاق العقل المجرد والمنطق العلمي بحثًا عن تعليل وتفسير لظاهرة (الأمة) كجماعة حضارية سياسية على هذا القدر من الاستمرارية والتواصل وتحدد المؤلفة مرجعها الأساس في المصادر الرئيسية لهذه الظاهرة (الأمة) في القرآن والسنة، وفى الخبرة التاريخية المعاشة عند نشأة الجماعة السياسية الأولى في دولة المدينة.

موضع الأمة في الإسلام

تطرح منى أبو الفضل فرضية أساسية قبل تناول مفهوم الأمة القطب ومعالجته، وهذه الفرضية ترى «أن الجماعة السياسية في الإسلام تجاوز الحقيقة التاريخية الموقوتة بماضٍ وَلَّى إلى واقع تعايشه اليوم وهى في طور من الحيوية المتدفقة بعد أن أصابها شيء من الوهن والانطواء». وهى في ذلك ترسم منحى فكريًا لهذه المقولة أو الفرضية - على حد تعبير المؤلفة - تظهر ملامحه في أن الرسول ﷺ قد خلَّف وراءه عند وفاته «أمة» قبل أن يخلف إمامًا. وأنه لو لم تكن الأمة لما وجب من يؤمها. وبالتالي فإن وجود الإمام وجود منسوب أو مشتق - والأمة أو الجماعة تصير

هي الأصل.

والأمة بهذا المعنى - كما تراه المؤلفة - هي المستودع للرسالة المحمدية، أي أن الأمة وعاء القرآن. ومن ثم فبقاء الأمة ليس مرهونًا ببقاء الإمام - وهو المعنى الذي أكدته الدراسة في أكثر من موضع - إنما هو مرتبط بالعلة وهو القرآن الكريم. أما اختفاء الإمام فهو أمر وإن أضعف وحط من فاعلية الأمة - بحكم أن الإمامة هي الرمز المجسد للأمة والممثل لها وأداتها التنفيذية التي تقوم بمصالحها - إلا أنه مع ذلك لا ينفى وجودها الذي يعد هو ذاته ضمانًا لتجددها.

هذا الوعي المنهجي يمكن الحكم عليه بأنه «متفرد» من منى أبو الفضل فالتمييز بين وجود «الأمة» ووجود «الدولة» يعد أمرًا لازمًا انطلاقًا من مبدأ «الواقعية» الذي انطلقت منه في بداية طرحها، فهو أيضًا معالجة نفسية وجدانية، بالإضافة إلى كونه طرحًا عقليًا مفاهيميًا منطقيًا يعالج ما أصاب العالم الإسلامي (الإنسان والجماعة) عقب انهيار وسقوط الدولة أو الخلافة في بداية القرن العشرين.

وفى ضوء هذا الوعي المنهجي - أيضًا - تؤكد المؤلفة - على الأساس الاجتماعي للأمة، والذي يرتكز في تماسكه على عقيدة إيمانية شاملة مصدرها رباني، ومجالها كافة أوجه الحياة الدنيا في منظور أخروي.

أضافت منى أبو الفضل بعدًا آخر لمفهوم الأمة في الإسلام وهو بعد «التفاعلية» والذي يظهر في «تفاعل» الرسالة» والرسول فيما قدر له أن يكون ختامًا لعهد النبوة ومقدمة لعهد البشرية بالمنهجية القرآنية ، ذلك التفاعل الذي أخرج كيانًا حيويًا متماسكًا له مميزاته التي لا تحكمها المؤثرات البيئية والنوعية. ومن ناحية أخرى تشير إلى خصوصيات الأمة الكيانية أنها على مستوى التعايش الزمني لواقع اجتماعي حضاري متجدد، وعلى مستوى الرصد والتسجيل لهذه المعايشة في الذاكرة التاريخية للجماعة، فإن الأمة تشارك سائر الأمم في كونها حقيقية تاريخية. أما على

مستوى التواصل الزمني، وفى إطار تجاوزها للتعدد والتنوع الجماعي والحضاري، فإن الأمة تستقل عن غيرها من الأمم وتستأثر ببعد موضوعي يطلقها من النسبية التاريخية. وهو ما يمكن أن نطلق عليه «المشاركة» و«التميز».

جدلية الاستقطاب:

ترى منى أبو الفضل أن «الأمة القطب» هي تلك الأمة التي ينجذب إليها المختلفون والمتباينون ويلتقون جميعًا حولها وينشدون إليها باعتبارها «بؤرة جاذبة» أو «مركز ثقل بشرى»، حيث تنفرد «الأمة القطب» بأنها «مفاعل استقطابي «تنجذب إليه الوحدات الأولى لأنها هي «البوتقة» التي ينصهر فيها كل الأجناس والألوان لتكوين «هوية» متميزة ومتمايزة أو كما تقول «الأمة في الإسلام ملتقى أجناس وشعوب مختلفة الألوان والمنبت، ومن خلال موجات الإشعاع والجذب المتعاقبة تشد إليها وتصهر العناصر المتباينة في بوتقة تآلف جامع، وذلك دون أن تُذهب من معالم مكوناتها. ومن خلال جمعها للتمايز والوحدة على هذا النحو تقدم لنا الأمة الصياغة الحية المجربة لتلك المثالية المحققة التي طالما ميزت الحضارة الإسلامية».

وتقصد بالجدلية هنا: هو تلك العملية التي يتجاوز من خلالها المسلم الفرد كينونة الطبيعية الخلقية إلى «الفرد الأمة» ويتجاوز جماعة المطلق الذاتي بدورها طبيعتها المادية المرتدة على الذات لتصير «الجماعة الأمة». ويمكن وصف «الجدلية» عند منى أبو الفضل بأنها عملية «التحول الكبرى» و«الطبيعية» في آن واحد نحو «الأمة» كي تصبح «الأمة القطب».

محاور الاستقطاب

تشير المؤلفة إلى محورين أساسيين في عملية الاستقطاب، الأول المحور الرأسي وتطلق عليه المحاور المعنوية التي ترتبط بالعقيدة والعبادات. والثاني: المحور الأفقي

وتطلق عليه المحاور المادية وقوامها الخبرة الوضعية المعاشة والتي من أبعادها العوامل الجغرافية والتاريخية والبشرية. هذا الدمج الذي تقدمه منى أبو الفضل والذي يتحقق فيه خاصية «التوازن» لمفهوم «الأمة القطب» فلا هو يغلو في المثالية أو الغيبية ببعده العقدي أو الديني، ولا هو ينفصل عن الوحي ويرتبط بالأرض على غرار المدرسة الوضعية ،بما يجعله مفهومًا يمكن دراسته وجعله عاملًا لتفسير ظواهر الاجتماع السياسي الإسلامي، كما يمكن طرحه علميًا في مجال العلوم السياسية المعاصرة التي تنبذ المفاهيم الغيبية وغير المادية.

دور العقيدة في المد الاستقطابي

تؤكد منى أبو الفضل – في بيان اقتصارها على محور العقيدة – على أهمية البعد العقدي في تنشيط خصائص «الأمة القطب» على مستوى التفاعل الذاتي لها ككيان استقطابي، باعتبار هذا البعد العقدي – المحور والمنطلق لكل تكامل وفعالية. وتتناول دور العقيدة في الصورة الترابطية التالية:

١ – التوحيد محور العبادات وأساس علاقة الخلق بالخالق. وهذا ما رسخ في ضمير الأمة وتعارفت عليه الجماعة.

٢ – تشكل العقيدة مصدر تماسك الكيان الذاتي للفرد، ثم هي مصدر تماسك الكيان الذاتي للجماعة.

٣ – تكون الوحدانية مصدر وحدة الجماعة، ليس فقط على مستوى الإقرار والسكون أو كأحد معطيات تأسيسية في بناء شامخ قائم، ولكن «الوحدانية» كطاقة توليد حيوية ومفاعل الحركة لكيان بشرى كوني.

٤ – وعلى المستوى الخارجي، فإن المفاعل الاستقطابى الذي يتحول إلى طاقة إشعاعية للغير، يحفظ كذلك خاصية الجذب إليه الموجهة قبل الكيانات الأخرى.

٥ – العقيدة أيضًا – عنصر من عناصر الترابط في الجماعة بل كعنصر رئيسي في

ترابطها باعتبارها ملتقى جمع وصهر وحداتها على اختلاف أصولها ومنبتها – شعوبًا كانت أم قبائل.

٦– العلاقة بين التوحيد وكل ما يتفرع عنه من قيم ومعتقدات واتجاهات وبين الأمة – وهى الوعاء التاريخي الاجتماعي لتلك العقيدة – إنما هي علاقة «قيم» و«مؤسسات» بالهيئة الجماعية المنفردة في رسوخ جذور وحدتها وتأصل تماسكها في شكل الأمة القطب و«الأمة المستقطبة».

دور الشعائر في المد الاستقطابي

التطابق بين الداخلي والخارجي وبين الشكل والمضمون هكذا تصور منى أبو الفضل العلاقة بين العقيدة والشعائر وبين التوحيد والشعائر، فهذا الترابط بين التوحيد والشعائر أوثق ما يكون كثمرة لعقيدة متماسكة متناسقة تستمد قوتها من كنهها وليس من مجرد إطارها الوضعي أو ظرفها التاريخي الذي قد يبرز دلالة هذا الكنه دون أن يصنعه.

وتضرب المؤلفة لذلك الترابط مثالين في الصلاة بالتوجه إلى القبلة، والحج وهو الانتقال من استقبال الوجهة إلى الإقبال على الموضع. وفى المثالين تلاحظ أن «الدور المحوري للكعبة المشرفة –بيت الله العتيق – لا يقتصر على تجسيدها لعقيدة التوحيد والوحدانية ولكنه يمتد إلى ما تؤديه من تعزيز وحدة الأمة في شكل مادي محسوس... وهو ما يبرز هذه الدولة الاستقطابية لهذه العملية، انجذاب الأجساد، أفواج المطوفين، والتي تتجلى فيها حقيقة التوحيد كقيمة عليا في الوجود لا يقتصر تكريسها جبرًا بفعل القواعد الكونية الذاتية، وإنما يرتقى الإنسان المؤمن العابد إلى إدراكها والإقرار بها والعمل لها طواعية».

التنشئة الجماعية و«الدفع الذاتي» المتجدد:

البعد التربوي في الفكر السياسي الإسلامي المعاصر كان غائبًا إلى حدٍّ ما، لذا

فإن انتباه منى أبو الفضل إلى ذلك البعد في هذه الدراسة التأصيلية السياسية يستحق الالتفات إليه، فالكيانات والتنظيمات الكبرى تعتمد وبصورة أساسية على التأسيس التربوي للعنصر البشرى، ومن ناحية أخرى فإن «التربية والتعليم» يعدان عنصرين بارزين في البناء المؤسسي للأمة «الإسلامية»، منذ إعلان تأسيسها من قبل الوحي «اقرأ» ويظهر هذا الاهتمام عند منى أبو الفضل فيما توليه من عناية بما أطلقت عليه «حيوية التنشئة الجماعية» أو «دورة الدفع الذاتي» أو «دورة التنشئة الحيوية» والتي تتكامل مع الدورة الاستقطابية».

وتؤكد أيضًا أنه إذا كانت جدلية الاستقطاب هي محور حيوية الأمة القطب ومن أبرز معالم تمايزها على المستوى الكياني والحركي، فإن عصب هذه الحيوية ممكن أن نطلق عليه دورة التنشئة الحيوية، وهى في أساسها عملية تنشئة ذاتية، مصدرها قرآني وقوامها عمليات استبطان وممارسة، أي أن أساسها تعلمي أكثر منه تعليمي». وتنطلق هذه التنشئة الحيوية من المقدمات والمنطلقات التالية:

١- أن الفرد هو اللبنة الأولى في البناء.

٢- أن العبادات هي مقدمة للمعاملات.

٣- أن التنشئة الأولية للفرد المؤمن تنطوي على تنشئة متكاملة لأنها تنبثق عن عقيدة أصلًا شاملة متكاملة.

٤- أن استيعاب القيم الجماعية يتم من واقع التنشئة الفردية.

٥- أن الأمة حقيقة نفسية تعيش داخل كيان الفرد قبل أن تسقط على الواقع الاجتماعي والتاريخي.

٦- أن «الأمة» كواقع تنظيمي إنما هي حقيقة لاحقة للتواجد النفسي.

٧- أن الأمة كحقيقة تاريخية تتوقف على حيثيات ظرفية (زمنية ومكانية) تتيح

تحويل الطاقة المختزنة في ضمير الجماعة إلى قوة تنظيمية واعية.

يمكن تفسير الاهتمام التربوي عند منى أبو الفضل بالاعتماد على رؤيتها في تفسير «منشأ الأمة» وأصلها الأول، والذي ترده إلى منشأين أساسيين، أولهما: منشأ تاريخي مواكب لمطلع الدعوة ومتصل بمسارها. وقد امتدت الفترة التكوينية لصهر نواة الجماعة السياسية الأولى على مدى اثني عشر عامًا مثل الهجرة إلى المدينة، وثانيهما: يتمثل في المنشأ النفسي المتجدد بعد أن اكتملت الرسالة وتم التبليغ وضمنت في مصادر ثابتة مرجعية أولية (القرآن والسنة).

وهى بذلك ترى أن «الأمة» كيان حيوي متجدد ويتمتع باستقلالية وذاتية من ناحية، والتماثل العميق بين أعضائها الذي يتجاوز ويجُبُّ المسافات والفواصل الجغرافية والعرقية واختلاف النظم السياسية.

الأمة القطب...الأمة الوسط

الحلقة الأخيرة في التأصيل السياسي والحضاري لمنى أبو الفضل لمفهوم «الأمة القطب» والتي تركز فيه على ما أرادت الخلوص إليه في هذا الطرح، حيث أكدت على أن الأمة القطب لها ثلاثة جوانب أساسية هي: الصفات،والوظائف، والمنهاج هذا المثلث الحضاري الذي رأت فيه استنباطًا للمفهوم القرآني للأمة الوسط – التي هي الأمة القطب – «تقوم على الدعوة إلى الحق والعدل (الله – الشريعة)... هي صاحبة رسالة، وطريقها الجهاد، فهي تتسم بالإيجابية والالتزام. وجهتها محددة وغايتها واضحة وضوح وجهتها، وهى فضلًا عن ذلك جماعة يتوفر لها عناصر التكامل دون أن تنغلق على أنانية الذات؛ فالأمة الوسط هي الأمة المستخلفة في الأرض أي أنها الأمة وليست أمة بين الأمم».

وترفض المؤلفة «الوسط» بمعناه السياسي في الفكر الغربي والذي يحمل كثيرًا من السلبية، إلا أنها تشير إلى المضامين الحضارية لمفهوم «الوسط» في الإسلام وهى:

أولًا من حيث كون الجماعة التي يعبر عنها محور جذب واستقطاب، وثانيًا: «أمة وسط» من حيث الاعتدال في المزاج واجتناب الإفراط والتفريط. وثالثًا: «وسط» من حيث موازين القيم والأنظمة التي تقوم عليها.

*****

obeikan.com